المناظرات الأزهرية أو المباحثات المصرية بين شيخ السادة المالكية وإمام الشيعة الجعفرية

كان الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين قد زار مصر عام ١٩١٢م مدفوعاً برغبته في زيارة الأزهر الشريف ومقابلة علمائه وقد هيأ الله تعالى له ذلك، وكان من ثمرات تلك الزيارة مباحثاته مع شيخ السادة المالكية وشيخ الجامع الأزهر الشيخ سليم البشري والتي ضمنها كتابه ''المناظرات الأزهرية أو المباحثات المصرية'' والذي اشتهر باسم (المراجعات)، ودلّت تلك المباحثات على سعة أفقيهما واطلاعهما وتسامحهما العظيم، وأثبتت المودة الراسخة لدى العالم المالكي الكبير الشيخ البشري لآل البيت الطاهر واحترامه الشديد للشيعة الإمامية، وقبل أن نفصل القول في قصة تلك المراجعات ندرج فيما يلي عرضاً لترجمة الشيخ البشري (رحمه الله).

ولد حوالي سنة ١٢٤٣هـ أو ١٢٤٤هـ في محلة بشر بمركز شبراخيت بمديرية البحيرة ولما شبّ حضر إلى مصر لتلقي العلم وأقام تحت رعاية شيخه الشيخ بسيوني البشري من شيوخ المسجد الزينبي، وإنه تعب في طلب العلم تعباً شديداً ولقي من الدهر فيه مقاومات عظيمة، وإنه كان يتعبد في المسجد الزينبي ليلاً ويذهب إلى الأزهر نهاراً لتلقي الدروس ومن أساتذته: الشيخ الخناني وعليش والباجوري، وإن خاله عين أميناً لكساوي المحمل المصري في أول ولاية سعيد باشا فخرج معه إلى الحجاز حاجاً ''وبعد أن أدى فريضة الحج عاد إلى وبقي يشتغل بالتدريس حتى سنة ١٢٧٣هـ تقريباً''.

وأول عهده بالوظائف أن ''عُين إماماً لمسجد إينال بمرتب ٩٠ فضة في الشهر''، وفي سنة ١٢٩١هـ مات الشيخ علي العدوي فنيط به التدريس في المسجد الزينبي بدلاً منه بمرتب مائة قرش في الشهر وعين وكيلاً عن شيخ المسجد الزينبي لحداثة سنه وهو الشيخ أحمد الصفتي الشيخ الحالي وبقي كذلك إلى آخر ولاية إسماعيل باشا، ثم عُين إماماً وخطيباً لمسجد زين العابدين ثم شيخاً للمالكية بعد وفاة الشيخ عليش ثم

شيخاً للأزهر لأول مرة في سنة ١٩٠١م وكانت مدتها أربع سنين. وذكر من حبه للعلم وإيثاره له أن تلميذه قدري باشا عرض عليه وظيفة بثلاثين جنيهاً فأبى مفضلاً الانقطاع إلى تعليم العلم. ومن تلامذته: الشيخ محمد عرفة، والشيخ محمد راشد، والشيخ البسيوني البيباني.

ومن القضايا التي أثيرت في أيام مشيخته للأزهر دعاوى نقل المشهد الزينبي إلى مكان آخر حيث رأى رئيس مهندسي الأوقاف أن ينقل القبر المنسوب إلى السيدة زينب بما فيه فعارضه الشيخ وأعلمه أن ذلك مخالف للشرع من وجوه عديدة، وانتهى الخبر إلى الخديوي محمد توفيق باشا فأمر بإبقاء القبر في مكانه وترضّى الشيخ فتمّ له ما أراد. ولما كانت نشأة الشيخ الدينية في جوار ذلك الضريح وصار قيّماً له عدة سنين ظل محافظاً على تكريمه طول عمره.

وكان علماء الأزهر متفقون على أنه أعلمهم بالحديث وأن طريقته في قراءته أنه كان يقرأ الحديث أولاً على سبيل التبرك ثم يقرأه أحد الطلبة بصوت جهوري ثم يشرحه الشيخ بما شاء الله من علمه.

قال زكي مجاهد: ''وكان واسع الاطلاع في علوم السنة، ونبغ نبوغاً أبلغه درجة السلف الصالحين من رواة حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان من أكبر المناهضين والمنافسين للسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده. ولما تولى مشيخة الأزهر في المرة الثانية اشترط ألا يليها إلاّ إذا أرفه من حال العلماء والطلبة ووسّع في أرزاقهم وردّت إليهم حقوقهم. فتقرر يومئذ زيادة مرتبات العلماء عشرة آلاف جنيه سنوياً وصرّح لكل عالم بركوب السكة الحديدية بنصف أجرة وكذلك للطلبة في أيام حضورهم للدراسة وانصرافهم للمسامحات''.

وكانت وفاته في داره بالحلمية من ضواحي مصر قبيل ظهر الجمعة ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٧م-٤ ذو الحجة سنة ١٣٣٥هـ بعد ما لزم الفراش يومين كان من قبلهما ينهض بأعباء المعاهد الدينية ويلقي دروسه العالية في الأزهر بعزم فتي لا تنال منه الشيخوخة ولا يدركه هرم. وشيعت جنازته إلى الجامع الأزهر صباح السبت فصلي

عليها وقرأ الشيخ محمد الحملاوي قصيدة في رثائه ثم تلاه الشيخ محمد أبو العيون بتأبين منشور ثم حملت الجنازة إلى مقابر المالكية من قرافة السيدة نفيسة (رضي الله عنها) وبعد مواراتها التراب أنشد الشاعر الشهير حافظ إبراهيم مرثيته التالية:

أيدري المسلمون بمن أصيبوا ... وقد واروا سليماً في التراب
هوى ركن الحديث فأيّ خطب ... لطلاب الحقيقة والصواب
موطّأ مالك عزّى البخاري ... ودع لله تعزية الكتاب
فما في الناطقين فم يوفي ... عزاء الدين في هذا المصاب
قضى الشيخ المحدث وهو يملي ... على طلابه فصل الخطاب
ولم تنقص له التسعون عزماً ... ولا صدته عن درك الطلاب
وما غالت قريحته الليالي ... ولا خانته ذاكرة الشباب
أشيخ المسلمين نأيت عنا ... عظيم الأجر موفور الثواب
لقد سبقت لك الحسنى فطُوبى ... لموقف شيخنا يوم الحساب
إذا ألقى السؤال عليك مُلْقٍ ... تصدّى عنك برك للجواب
ونادى العدل والإحسان أنا ... نزكي ما يقول ولا نحابي
قفوا يا أيها العلماء وابكوا ... وروا لحده قبل الحساب
فهذا يومنا ولنحن أولى ... ببذلِ الدمع من ذات الخضاب
عليك تحية الإسلام وقفاً ... وأهليه إلى يوم المآب

وقد خلفه في رئاسة الأزهر الشيخ محمد أبي الفضل الجيزاوي المالكي شيخ علماء الإسكندرية، ومما ذكر وفاته رشيد رضا ولكنه نال منه على عادته في التجريح بالعلماء الذين لا يتفقون مع خطته[1].

---

[1] مصادر ترجمته: مجلة الهلال: ٢٦، ١٩١٧م. الأعلام الشرقية: رقم ٤١٥. المنار: ج٣، م٢٠، ص١٦٠-١٦٤ وج٦، م٢٠، ص٢٨٨. الكتر الثمين لعظماء المصريين. كتر الجوهر في تاريخ

خلّف الإمام البشري من الأولاد: الأديب الشيخ عبد العزيز البشري، والسيد عبد الله أحد ضباط الجيش، والشيخ محمد طه، والشيخ أحمد، والشيخ عبد الرحيم، والشيخ عبد السلام.

❖ مؤلفاته:

(١) تحفة الطلاب بشرح رسالة الآداب. (٢) وضح المنهج. (٣) شرح نهج البردة لشوقي بك. (٤) تقرير على السعد. (٥) حاشية على رسالة الشيخ عليش في التوحيد.

ولم يمتاز الشيخ البشري بتسامحه مع الشيعة فقط بل هو الذي أفتى بحرمة قتال الأرمن الذين اضطهدتهم الدولة العثمانية في ذلك الحين في أدنه، وهو الذي ترأس اللجنة السورية التي عقدت في دار التمثيل الأميرية لإعانة طلبة العلم السوريين في الأزهر تلك اللجنة التي قال بحمدها بحق ''إنها مسيحية ليس فيها ولا مسلم واحد تسعى لإعانة مسلمين ليسئ فيهم نصراني واحد''.

❖ لقاؤه بالسيد شرف الدين:

في عام ١٣٢٩هـ-١٩١٢م قام الإمام عبد الحسين شرف الدين برحلة إلى مصر والتقى الشيخ البشري في رحاب الجامع الزهر الشريف وكان مما وصفه به قوله: ''هبطت مصر مؤمّلاً في (نيله) نيل الأمنية التي أنشدها، وكنت ألهمت أنّي موفّق لبعض ما أريد.

وهناك - على نعمى الحال، ورخاء البال، وابتهاج النفس - جمعني الحظّ السعيد بعلَمٍ من أعلامها المبرّزين، بعقل واسع، وخلق وادع، وفؤاد حيّ، وعلم عليم، ومنزل رفيع، يتبوّؤه بزعامته الدينية، بحقٍّ وأهليّة... فكان ممّا اتّفقنا عليه... أن أعظم خلافٍ وقع بين الأمة: اختلافهم في الإمامة... ولو أنّ كلاًّ من الطائفتين نظرت في بيّنات الأخرى - نظر المتفاهم لا نظر الساخط المخاصم - لحصحص الحقّ وظهر الصبح لذي عينين.

الأزهر. مرآة العصر: المجلد الثاني. سبل النجاح: الجزء الثاني. المنظومة الشكرية: الجزء الرابع. الجامع الأزهر للشيخ محمود أبي العيون.

السيد عبد الحسين شرف الدين في سفره إلى القاهرة .

وقد فرضنا على أنفسنا أن نعالج هذه المسألة بالنظر في أدلّة الطائفتين، فنفهمها فهماً صحيحاً، من حيث لا نحسّ إحساسنا المجلوب من المحيط والعادة والتقليد، بل نتعرّى من كل ما يحوطنا من العواطف والعصبيّات، ونقصد الحقيقة من طريقها المجمع على صحته، فنلمسها لمساً، فلعلّ ذلك يلفت أذهان المسلمين، ويبعث الطمأنينة في نفوسهم بما يتحرّر ويتقرّر عندنا من الحقّ، فيكون حدّاً يُنتهى إليه إن شاء الله تعالى.

لذلك قرّرنا أن يتقدم هو بالسؤال خطّاً عمّا يريد، فأقدّم له الجواب بخطّي، على الشروط الصحيحة، مؤيّداً بالعقل أو بالنقل الصحيح عند الفريقين.

وجرت بتوفيق الله عزّ وجلّ على هذا مراجعاتنا كلّها، وكنّا أردنا يومئذ طبعها لنتمتع بنتيجة عملنا الخالص لوجه الله عزّ وجلّ، لكنّ الأيام الجائرة، والأقدار الغالبة اجتاحت العزم على ذلك".

وفي مذكراته أورد السيد شرف الدين قصة اللقاء والمناظرة مع الشيخ البشري بتفصيل أوسع وهذا ما ذكره مختصراً:

"كانت مصر وما تزال منارة من منارات العلم في الشرق العربي والدنيا الإسلامية يؤمها رواد المعرفة ومنتجعو الثقافة من مختلف الأقطار وقد كانت تكافئ النجف الأشرف بأزهرها الشريف وتجاريه في خدماته للثقافة الإسلامية وحراسته للعلوم العربية وقد أمّ الأزهر فيما أعلم كثير من أعلامنا توسعاً في العرفان والإحاطة وتزيداً في المعلومات والاطلاع وكنت أحب فيما أحب أن أزور مصر وأقف على أعلامها لآخذ العلم عنهم ولأبلو ما يبلغني عن الجامع الأزهر ذلك المعهد الجليل، وظلت هذه الأمنية كامنة في نفسي حتى حفزها خالي المرحوم السيد محمد حسين في أواخر سنة ١٣٢٩هـ حين زارنا في عاملة فوجدتني وإياه نمخر عباب البحر في باخرة ألقت مراسيها في بور سعيد ثم حملنا القطار منها إلى القاهرة وكان لهذه الزيارة أثر محمود في نفسي وفي حياتي ذلك أني توخيت أن أتغلغل في الحياة العلمية وأستبطن دخائل المجتمعات الأدبية بالتحدث إلى العلماء والسماع منهم وبتبادل الزيارات بيني وبينهم وبالمناظرة في أهم المسائل العلمية التي كانت مدار البحث ومحك الفضيلة.

وقد بدأت هذه الجولة بالحضور في دورة شيخ الأزهر يومئذ الشيخ سليم البشري المالكي رحمه الله تعالى، وكان يشرف على طلابه من منبره وهو منطلق في درسه انطلاقاً يلحظ فيه توفره وضلاعته فيما هو فيه، وكان يلقي دروساً في مسند الإمام الشافعي فكان يعرض أول ما يعرض للسند فيترجم رجال سلسلته باختصار، فإذا انتهى إلى الحديث نفسه فصّل الكلام حوله بإفاضته فوقف إلى لغته وقفة أدبية ثم خطا إلى مورده ومفاده فإن كان في سبيل حكم من الأحكام ذكر ذلك، ولا يفوته ذكر الأصول العملية والقواعد العلمية عند الاقتضاء كما لم يكن يفوته التعرض لأقوال الأئمة في المسائل الخلافية، ولا تفوته مدارك الخلاف، فإذا كان الحديث معارضاً جمع بينهما فيما يمكن فيه ذلك أو رجح أحدهما صادعاً بوجه الترجيح.

حضرت درسه الأول مرة وهو يسترسل فيه على هذا النحو وعرض لي أثناء الدرس ما يوجب المناقشة فناقشته؛ ثم علمت بعدئذ أن المناقشة وقت المحاضرة ليست من الدراسة الأزهرية فكنت بعدها أفضي بعد الدرس بما عندي من المسائل الجديرة بالبحث والمذاكرة.

وقد كانت مناقشتي الأولى في كل حال سبباً في اتصال المودة بيني وبينه وسبيلاً إلى الاحترام المتبادل، ثم طالت الاجتماعات بيننا وتشاجنت الأحاديث وتشعب البحث بما سجلناه في كتابنا (المراجعات) ولو لم يكن من آثار هذه الزيارة إلا هذا الكتاب لكانت جديرة بأن تكون خالدة الأثر في حياتي على الأقل. ولعل الكتاب يُصَوِّر بعض الأجواء العلمية التي تفيأناها يومئذ منطلقين في آفاقها منطلقين من القيود الكثيرة التي كانت توثق الأفكار آنئذٍ برجعيات يضيق صدرها حتى بالمناقشة البريئة والتفكير الصحيح ومهما يكن من أمر فقد نعمنا بمصر في خدمة هذا الشيخ واتصلنا بغيره من أعلام مصر المبرزين إذ زارونا وزرناهم أخص منهم العلامتين الشيخ محمد السملوطي والشيخ محمد بخيت، وقد نجمت هذه الاجتماعات الكريمة عن فوائد جمة أقلها الاتصال الفكري بين مدرستي النجف والأزهر والتعارف بين خريجي هذه وخريجي تلك على مدى ما في كل منهما من أسباب التفكير وطرق الدراسة ووفرة

المحصول. ودع عنك ما لهذا الاتصال من النتائج الحسنة التي تعود على الوحدة بأعم الفوائد وأجداها.

ولكن زيارتي كانت زيارة فردية ثم هي منقطعة الأول والآخر وكذلك زيارات من زار مصر غيري لذلك كانت فوائدها وقتية ولو أن الزيارات تستمر متبادلة بين أعلام البلدين لكان لها أحسن الأثر في رفع كثير من غشاوات البعد ولاتصلت إذن حلقات الأمة متفاهمة متحابة تتساقى كؤوس الصفاء والولاء.

ولعل الوعي الاجتماعي الجديد يقرب خطوات هذه الاجتماعات بشكل من الأشكال الرسمية لندنو بها من الواقع الحبيب.

وعلى كل فقد غادرت مصر وأنا أحنُّ إليها وأتزيد من اللبث فيها و لم أغادرها قبل أن يتحفني أعلامها الثلاثة: البشري وبخيت والسملوطي، بإجازات مفصلة عامة عن مشائخهم أجمع بطرقهم كلها المتصلة بأرباب جميع الكتب والمصنفات من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في جميع العلوم عقلية ونقلية ولا سيما الصحاح الستة وموطأ مالك ومسند أحمد ومستدرك الحاكم وسائر المسانيد وكتب التفسير والكلام والفقه وبقية العلوم الإسلامية مطلقاً.

وممن أنعمنا بخدمته في مصر وتبادلنا معه الزيارات وكانت بيننا وبينهم محاضرات ومناظرات في مسائل فقهية وكلامية دلت على غزارة فضله ورسوخ قدمه في العلم شيخنا الشيخ محمد عبد الحي بن الشيخ عبد الكريم الكتاني الإدريسي الفاسي. وقد أجازني أيضاً إجازة عامة وسَّعَتْ طُرقي في الرواية والحديث. واطَّردت المراسلة بعد العودة إلى البلاد بيني وبين شيخنا البشري زمناً ثم طغت عليها الشواغل وكوارث الحرب العامة الأولى.

وكان رجوعنا من مصر في جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ وقد حملني الحنين إلى مصر على زيارتها مرة أخرى''.

وفي كتابه النص والاجتهاد نوه السيد شرف الدين بكتابه المراجعات وأثنى على شيخه البشري فقال: ''ومن أراد التفصيل فعليه بكتابنا (المراجعات) إذ استقصينا

البحث ثمّة عن تلك النصوص، وعن كلّ ما هو حولها مما يقوله الفريقان في هذا الموضوع، تبادلنا ذلك مع شيخنا شيخ الإسلام، ومربّي العلماء الأعلام الشيخ (سليم البشري المالكي)، شيخ الجامع الأزهر يومئذٍ، رحمه الله تعالى، أيام كنا في خدمته، وكان إذ ذاك شيخ الأزهر، فعنى بي عنايته بحملة العلم عنه، وجرت بيننا وبينه حول الخلافة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونصوصها مناظرات ومراجعات خطّية، بذلنا الواسع فيها إيغالاً في البحث والتمحيص، وإمعاناً فيما يوجبه الإنصاف والاعتراف بالحق، فكانت تلك المراجعات - بيمن نقيبة الشيخ - سِفراً من أنفع أسفار الحق، يتجلّى فيها الهدى بأجلى مظاهره، والحمد لله على التوفيق. وها هي تلك منتشرة في طول البلاد وعرضها، تدعو إلى المناظرة بصدر شرحه الله للبحث، وقلب واعٍ لما يقوله الفريقان، ورأي جميع، ولبٍّ رصين، فلا تفوتنّكم أيها الباحثون.

نعم، لي رجاء أُنيطه بكم فلا تخيّبوه، أمعنوا في أهداف النبي (صلى الله عليه وآله) ومراميه في أقواله وأفعاله، التي هي محلّ البحث بيننا وبين الجمهور، ولا تغلبنّكم العاطفة على أفهامكم وعقولكم، كالذين عاملوها معاملة المجمل أو المتشابه من القول، لا يأبهون بشيء من صحّتها، ولا من صراحتها، والله تعالى يقول: (إنه لقول رسول كريم ذي قوّة عندي ذي العرش مكين مُطاعٍ ثمّ أمين وما صاحبكم بمجنون... فأين تذهبون) أيها المسلمون (إن هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى)".

قال الإمام علي بن الحسين ع:

مَنْ ثَبَتَ عَلَى وِلايَتِنَا فِي غَيْبَةِ قَائِمِنَا أَعْطَاهُ اللهُ أَجْرَ أَلْفِ شَهِيدٍ مِثْلِ شُهَدَاءِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ

البحار ٥٢ : ١٢٥